فى قافلة الزمان

تأليف الأستاذ عبد الحميد جوده السحار

لقد عرفنا الأستاذ عبد الحميد جوده السحار فيما أصدر من مؤلفات قاصداً مؤرخاً ، يكتب التاريخ بأسلوب قصصى شيق ويرسم لنا أبطاله رسوماً تنبض بالحياة . وقد أخرج لنا « بلال مؤذن الرسول » و« أبا ذر الغفارى » و « سعد بن أبى وقاص » و « أبناء أبى بكر الصديق » وقال فيها قصصاً مرفوراً من النجاح وعالج الأقصوصة الحديثة فى كتابه « همزات الشياطين » لكن طابع السرعة وعدم الإتقان ، بدا واضحاً فى معظم أقاصيصه . ثم عالج نقد المجتمع والجهاز الحكومى بكتابة صور فكهة تصور معايبه فى الكتاب الذى أصدره بعنوان « فى الوظيفة » فكان أنموذجاً عالياً فى طرافة الأسلوب وروعة التهكم وجمال الأداء .

ولكن الكتاب الذى نتحدث عنه الآن يسلك سبيلا آخر لنقد المجتمع وعاداته هو سبيل الرواية . فكتاب « فى قافلة الزمان » إذن رواية طويلة انتزعت شخصياتها من صميم المجتمع المصرى . ولكى يدرك القارئ ما بذل المؤلف من مجهود فى تصوير عادات عدة أجيال من أمته ينبغى أن يعلم أنه بدأ الرواية فى بداية القرن العشرين وانتهى بها فى أواخر سنيه الحالية . أى أن الرواية سجل لحياة مجتمع فى نصف قرن . ولم يكن هذا السجل لحسن الحظ مشوشاً مرتبكا ناقص المعلومات ، بل كان مرتباً منظماً بلم بالشاردة والواردة ، قد دونته يد كاتب ماهر رمى إلى تقديمه بين يدى كل من يتوق إلى معرفة مجتمعه فى فترة لم يكتب له فيها الوجود ، وبذلك يوفر عليه الاطلاع وإن لم يوفر له الوجود !.

فنجاح المؤلف من هذه الجهة لا ريب فيه . إذ أنه وفق كل التوفيق فى نقل عادات الناس ، ورسمها بدقة وأمانة وإخلاص .

أما هيكل الرواية ففيه طرافة وتجديد . ونستطيع أن نلخصه فى عبارة قصيرة ؛ فنقول إنه عبارة عن تاريخ حياة أسرة وأحفادها . فقد بدأت الرواية فى التحدث عن الحاج أسعد وهو أبو الأسرة الأكبر ومن حوله أبناؤه الأربعة ولكل منهم زوجة وأطفال . ويظل هؤلاء جميعاً سقف واحد فى البيت الكبير الذى يمتلكه الحاج أسعد . ثم تستطرد الرواية فى استعراض حياة هذه الأسرة التى تتفرع وتتشعب وتتشابك شؤونها وتتعقد مشاكلها بازدياد أفرادها واتصال أعمالهم بأعمال الناس ، وبما يواجههم ما يواجه الإنسان فى خضم الحياة من مشاغل تستولى على عمره . فهنا بيع وهناك شراء ، وهنا زواج وهناك طلاق ، وهنا مرض وهناك موت ، وإلى آخر ما يتعلق بالحياة من أمور . وعلى الرغم من أن السيطرة على دفة رواية تعالج نفسيات الناس وعاداتهم وتبسطها على خير الوجوه من الصعوبة بمكان ، فإن الأستاذ السحار أمسك بالدفة شأن الربان الماهر ، وعالج حياة هذه الأسرة وما تفرعت منها من أسر بدقة وإتقان . حتى أن القارئ ليخرج من الرواية وهو على أتم ثقة أن المؤلف لم يغفل حادثة من الحوادث ليصور إحدى العادات ، وأن الرواية سارت فى مجراها الطبيعى دون أن تتعثر بما فى طريقها من صخور

ومع أن الرواية ليست من ذلك النوع الذى يعنى المؤلف برسم مشكلة لها هى العقدة ؛ تتشابك الحوادث حولها وتتكاثر الشخوص ، ومع أنها أيضاً لا تشتمل على حوادث غريبة مشوقة وإنما هى قطعة من الحياة مليئة بما يقع للمرء وما يشاهده فى مجتمعه من الحوادث والعادات على مدار الأيام فإنها مع ذلك تجرى فى أسلوب لين شيق يأخذ بانتباه القارئ فيستغرق فى تلاوتها بلذة وإعجاب . وهذا ولا شك هو المقصود بنجاح الروائى وبراعته .

بيد أن كثرة شخصيات الرواية لم يفسح للمؤلف مجالا كى يرسمها جميعاً بالدقة المطلوبة — كما رسم شخصية مصطفى ونفيسة مثلا — فجاءت صور قسم منها باهتة لا تتسم بميزات وملامح واضحة برغم أهميتها . ومن ذلك القسم جاءت شخصيات سليم وأسعد وسارى . ولعل ذلك يبدو بصورة أوضح لو قارنا — على سبيل المثال — نجاح المؤلف فى تحليل شخصية مصطفى بنجاحه فى تحليل شخصية سليم . مع العلم أن الشخصيتين تتكافآن

فى الأهمية والدور . حقاً إن الفرق يبدو شاسعاً بين النجاحين . والواقع أن براعة المؤلف كما يتضح لى متجهة إلى غرضين يمكن القول أنهما شغلاه نوعاً عن الأغراض الأخرى : الأول والأهم هو تصوير حالة المجتمع المصرى فى نصف القرن الأخير وتسجيل عاداته وتقاليده . وقد سبق لى أن ذكرت أن المؤلف توفق فى هذا كل التوفيق . فاستطاع أن يكوّن صورة فى أذهاننا عن الزواج — مثلا — فى جميع مراحله : كيف تتم الخطبة ، ويعد « الجهاز » ويقدم « النيشان » ثم تقام الزفة التى يعقبها بناء الخطيب بخطيبته .

ولكى أكوّن لدى القارئ فكرة عن دقة المؤلف فى تصوير هذه العادات أورد الآن مقطعاً يتعلق بأحد مراحل الزواج الذى يسمى « النيشان » . فقد جاء فى صفحة (٢٠٥) من الكتاب ما يلى :

[وخرجت أمينة وعصمت وسكينة لشراء « النيشان » وهو هدايا يقدمها الخطيب لخطيبته قبل الزفاف ، ويتكون « النيشان » عادة من حذاء فضى ، وقماش من القصب المنابى ، وقفاز أبيض ، ومروحة كبيرة من ريش أبيض فاخر ، وطرحة بيضاء ، وحافظة بيضاء وجورب أبيض من الحرير الغالى ، ويطلق على هذه الأشياء « الطقم الأبيض » ، وهو ما ترتديه العروس ليلة الزفاف . ويحتوى « النيشان » كذلك على شباشب حمراء وصفراء وخضراء وجوارب ومناديل وروائح وصابون مملك ، وصندوق توالیت فاخر ، وأقمشة متعددة وثياب داخلية]

هذا عن الزواج ، وما يقال عن الزواج ، يقال عن كيفية علاج الناس للمرض والعقم واستغنائهم عن الأطباء بأولياء الله من أمثال سيدى البيدق ، وأولاد عنان ، وسيدى الشعراوى ، والسيدة نفيسة ، والمندورة . ولهم شأن الأطباء ، لكل منهم اختصاصه : فسيدى البيدق يشفى من الصداع ويزوره المرضى بعد صلاة العصر ، وأولاد عنان يشفون المرضى المهازيل ، وسيدى الشعراوى يشفى مرضى النفس والجسد ، ولابد من زيارة ضريحة مرتين فى اليوم فى الفجر وعند الغروب ، أما السيدة نفيسة فيزورها مرضى العيون ولم يحدد لزيارتها وقتاً . والمندورة تشفى النساء من العقم .

هذه العادات ، إلى غيرها من نظم المجتمع وما يتصل به ، حظيت من المؤلف بأكبر قسط من الاهتمام . ولذلك جاءت صادقة دقيقة تنساب فى سلاسة وبساطة محببة . وبذلك حقق المؤلف هدفه الأول .

أما الهدف الثانى فهو على ما أعتقد دراسة شخصية مصطفى ، التى تمثل شخصية المؤلف . وقد نجح الكاتب فى هذا الغرض أيضاً ، حتى أن القارىء يظن أنه عرف مصطفى هذا قبل أن يقرأ عنه فى الرواية ، وهو قد عرفه فى الحق ؛ ولكنه عرفه فى خضم الحياة المليئة بأشخاص من طراز مصطفى . وقد أبدع المؤلف خاصة فى تحليل حب مصطفى وعواطفه ، وعندى أنه إن لم يكن قد بلغ القمة فيه فقد قاربها .

وهناك بعض المؤاخذات على المؤلف أهمها كثرة أبطال روايته . صحيح أن مجال الرواية واسع ، وأنها تشمل الحياة بكليتها ، ولكن هذا لا يعنى أن نعالج نفوس الناس بأجمعهم ، بل علينا أن نتفق منها ما يمثل منها مجموعة بعينها . وحيث أن المؤلف عالج فى روايته أسرة معينة تفرعت منها أسر أخرى ، فإنه تعرض لجميع أفراد هذه الأسر .

ولكننى لا أتفق معه على طريقته هذه ، وأقل ما يقال عنها أنها توقع القارىء فى الارتباك فلا يستطيع معرفة الشخصيات معرفة دقيقة وهى على تلك الكثرة . وبالاضافة إلى ما قد ينجم عنها من ارتباك ، فانها دفعت المؤلف إلى تسجيل بعض الحوادث التافهة التى لا تستحق أن يُفرد لها مكان فى رواية جيدة كروايته . وأبسط مثال على ذلك شخصيات أصدقاء سليم وأسعد التى لم يكن لها لزوم فى الرواية إطلاقاً ، والتى تشعر القارىء دوماً أنها كل على الرواية ، قد أقحمت فيها إقحاماً ، ومهما حاول القارىء أن يتعرف على لون لها اصطدم بالحقيقة الواضحة وهى أنها عديمة اللون والطعم والرائحة !

وقد كاد المؤلف من الجهة الأخرى أن يشرك عنصر الفساد فى الرواية ، لا لشىء حتمة إلا لكونها قد طالت . والظاهر أن ذلك الطول قد أتى المؤلف ، لأنه عمد إلى استغلال قانون السرعة استغلالا مضراً بمصلحة الرواية كل الضرر . ولعل القارىء يستطيع أن يلاحظ ذلك منذ بداية الصفحة الثلاثمائة .

إذ اتجه المؤلف إلى رواية الحوادث بأسلوب بسيط ساذج لا تميزه إلا السرعة ، وليس له أية علاقة بأسلوب الروائى الفنان ، ثم ما تكاد تأتى النهاية حتى يصطدم القارىء بحقيقة أخرى ، تتمثل بتر الرواية . صحيح أن نهايتها موفقة ، ولكن القارىء يشعر شعوراً أكيداً أن المؤلف لم يقل كل ما عنده ، وأن عليه الاستمرار فيها لأنها لم تنته بعد .

وفيما عدا ذلك فإن الرواية على نصيب موفور من الروعة فى فنها وأسلوبها وأغراضها .

(القاهرة) شاكر مصباح

من نور القرآن الكريم

تأليف الأستاذ الشيخ عبد الوهاب خلاف

القرآن ثروة الإنسانية الروحية ؛ وذخيرتها التى تعتز بها فى اجتماعها واقتصادها وسياستها وخلقها ؛ وهو موضع الحفاوة ؛ وهدف الدراسة ؛ ومثار النشاط العقلى بين ذوى القرائح الخلاقة ؛ غير أنه لم ينل فى البيئة الإسلامية كل ما يتطلبه فى هذه الرحلة الفكرية الجديدة ، كتحديد أهداف سوره ؛ والمحور الذى تدور حوله . مما يعين على تمثل أغراضه ؛ والنفاذ إلى مراميه . ولعل أول محاولة يراها — النور — فى هذا الميدان هى ما اضطلع بها الأستاذ الجليل فى النهج الذى انتهجه فى تفسير الربع الأول من سورة البقرة وآل عمران والنساء . وهذا النهج يتمثل فى أنه يبتدىء بكلمة عامة عن السورة يقدم فيها بين يدى — القارىء — العناصر الأساسية التى يتكون منها هيكل السورة ؛ ويهيىء الجو الذى يظله من السورة بظلاله . وهذه خطوة لها أثرها القيم فى فهم أسرار القرآن واستلهام روحه صافية غير مشوبة ، حتى إذا وصل إلى الربع الذى هو بصدده أخذ يكشف لك عما يتناوله من أغراض . فإذا ما وضع تحت بصرك هذه الأصول فقد اجتاز بك المنطقة الشائكة ؛ ثم يأخذ بعد ذلك يصور لك بأسلوبه الفكرى وبقلمه البيانى ، المعنى العام للربع إذا بك تجدك وقد وصلت إلى أهدافك من أيسر السبل ؛ دون أن يجشمك متاعب السفر ولا وعثاء الطريق ؛ فها هو ذا يستهل بحثه بكلمة عامة عن سورة — البقرة — ويسلل طولها باشتمالها على تشريع الأحكام العملية . وقد بدأها الله ببيان فرق الناس بإزاء الاهتداء بالقرآن ، وبين فيها البر وأحكام القصاص ؛ والوصية . والصيام . والحج . والنفقة . والخمر . والميسر . والزواج والطلاق . والعدة . والإيلاء . والربا . والمداينة ، والتوثيق بالكتابة : والإشهاد ؛ والرهن الخ ، حتى إذا استوفى هذا البيان العام وأعطاك الصورة الإجمالية للسورة ، انتقل بك من العام إلى الخاص ، وقدم إليك صورة صحيحة دقيقة لفهم روح القرآن وبيان أسراره . وعرض تفسير الربع الأول من سورة البقرة أبدع عرض ؛ وعلى هذه السنة استبن عمله فى آل عمران والنساء . فيا حبذا لو أخذ علماؤنا يعالجون القرآن تحت هذا الضوء ، ويقدمونه على هذا الأسلوب ، لقربنا إذن الشقة بينه وبين الأذهان التى بعدت بها ظروفها عن الدراسات الدينية ؛ ولظهرت آثاره قوية فى أخلاقهم وأفكارهم وحياتهم . فمتى ننتفع بهذه الثروة التى تكفلت بسعادة العالم . متى !

محمد عبد الحليم أبو زيد

إعلان

توجد وظائف كتابية من الدرجة الثامنة خالية بمصلحة الطب الشرعى مطلوب بشغلها من حملة شهادتى الدراسة الثانوية القسمين الخاص والعام ودبلوم التجارة المتوسطة ، فعلى من يرغب فى الالتحاق بإحدى هذه الوظائف أن يقدم طلباً على الاستمارة ١٦٧ ع . ح . باسم حضرة صاحب العزة وكيل وزارة العدل المساعد لشئون الطب الشرعى ، وإذا كان راغب الالتحاق مستخدماً بإحدى الوزارات أو المصالح الحكومية ، فيجب أن يرسل الطلب عن طريق الجهة التابع لها ممحوباً برأيها فى نقله .

وذلك فى ميعاد لا يتجاوز الأسبوع الأول من شهر أكتوبر ١٩٤٨ ٣١٦